صوم نينوى في الكنائس الشرقية

نظر تاريخيّ ليوسف افندي غنيمة البغداديّ والاب لويس شيخو اليسوعي

ارسل لنا مكاتبنا البغدادي الاديب يوسف افندي غنيمة فصلًا عن صوم نينوى الشائع في الكنيسة السريانيّة . وكان سابقًا حضرة الاب الفاضل الخوري ابراهيم حرفوش كتب في ذلك نبذة في جملة مقالة مطوّلة عن الصوم لم تسمح الفرصة بنشرها . ثمّ راجعنا عدّة كتب ليتورجيّة وتاريخية فجمعنا كل هذه المعلومات في مقالة واحدة لتتمّ بها الفائدة ل . ش

في كلّ سنة قبل حلول الصوم الكبير بثلاثة اسابيع يرتّب السريان والكلدان بصوم يدوم ثلاثة ايّام اوّلها الاثنين وآخرها الاربعاء (وهو يوافق في هذا العام اليوم الخامس والسادس والسابع من شباط) يدعونه صيام نينوى وربّما دعوهُ ايضًا بالباعوثة . امّا نسبتهُ الى نينوى ففيهِ اشارة الى توبة نينوى التي جاء تفصيل خبرها في سفر يونان النبيّ لمّا انذر اهلها بغضبهِ تعالى وتهدّدهم بدمار مدينتهم فانابوا الى الله وباؤوا باثمهم تائبين بالصوم والصلاة ولبس المسوح فقبل الربّ توبتهم وغفر لهم خطاياهم ولم يلحق بمدينتهم ما اضمرهُ لها من الخراب . امّا تسميتهُ بالباعوثة فذلك اشتقاق من اللفظة السريانيّة (ܒܥܘܬܐ) ومعناها الطلبة والدعاء لما يُقام من الصلوات والادعية في ذلك الوقت

﴿ اصل صوم نينوى ﴾ انّ هذا الصوم عريق في القدم ألِفهُ الشرقيّون منذ القرون الاولى ولو قيل انّ نصارى العراق اتّخذوهُ ذكرًا لصوم نينوى عند ما دانوا بالنصرانيّة لَما قالوا شططًا وقد وجدوا في حفظهِ فرصةً جديدة للتكفير عن آثامهم وللندامة الى الله مع الانقطاع الى اعمال البرّ والاماتة

وكأنّي بالقارئ يتصدّى لي قائلًا وكيف يا ترى اجاز النصارى الشرقيّون اقامة صوم من اصوام العهد العتيق بعد ان ابطل السيّد المسيح وتلاميذهُ الحواريّون السُّنن الموسويّة . فنجيب على هذا بقولنا انّ صوم نينوى ليس بفريضة من الفرائض الموسويّة ولا كان جاريًا عند اليهود وانّما ورد فقط ذكرهُ في الاسفار المنزلة . ومن ثمّ لا بأس من القول بانّ نصارى الشرق احيوا ذكرهُ شكرًا لله على نعمة جاد بها على آبائهم وتكفيرًا عمّا اجترحوهُ هم من الذنوب . ولعلّ هذه العادة سبقت في العراق عهد

المرطقة النسطوريّة فانتشر هذا الصوم من الكلدان الى الملل الاخرى. وعلى كلّ حال لا نرى موجباً لتفنيد قول البيروني في الكتاب الآثار الباقية من القرون الخالية (ص ٣١١) وهو يعلّل هذا الصوم بذكر صوم اهل نينوى حيث قال: «وكصوم نينوى فانهُ يوم الاثنين الذي قبل اوّل الصوم الكبير باثنين وعشرين يوماً وهو ثلاثة أيام. وذكروا انّ قوم يونس لمّا اظلّهم العذاب ثمّ كشفهُ الله عنهم وآمنوا صاموا هذه الثلاثة أيام»

على انّ الكلدان يروون في اصل صوم نينوى غير ذلك. فيجيبون على الاعتراض السابق جواباً اورد نصّهُ اليًا اسقف النساطرة في دمشق في كتاب النواميس نقلًا عن يوحنّا بريشوع الجاثليق الذي تولّى كرسيّ الفطريركيّة على الكلدان من سنة ٩٠٠ الى ٩٠٥ قال (راجع المكتبة الشرقية للسمعاني ج ٢ ص ٤٢٦):

«تشاجر قوم مع (النصراني) ابي العبّاس الفضل بن سليمان في امر الصوم المعروف بنينوى في ايام هذا الصوم في سنة تسعين ومائتين للعرب وذلك في سنة الف ومائتين وارسعة عشر للاسكندر (٩٠٢ م) في احد عشر من كانون الثاني فكتب ابو العبّاس الى ابينا يوحنّا الجاثليق ذكرنا الله بصلواتهِ يسألهُ عن العلّة في صوم نينوى والعلّة في صوم العذارى وكانت نسخة المسائل والجواب على ما قد بُيّن في هذا الكتاب. وهذه المسألة: ما العلّة اعزّ الله ايانا الجاثليق في الصيام الثلثة الايام المعروفة بصوم نينوى واجرائها مجرى الصوم الكبير. والذي جرى في امر نينوى وامر يونس على الناموس العتيق ولسنا ابناء اليمة مأخوذين بالناموس العتيق؟ ومن امر بذلك من الاباء ومن ختم بهِ؟ فقد كان اعلمني شيخ لنا انت عليهِ مائة سنة وكسر منذ شبته (كذا) بثلثين سنة انهُ وسائر اصحابنا يكسّر كانوا لا يصومون نينوى ويأكلون اللحم فيها الخ

الجواب في ذلك: اول ما نقول انّا اجبنا عمّا سألت بالعربيّة لان كتابك ورد بالعربيّة وليقف عليه من شاجرك بلا حاجة الى واسطة مترجم بما نكتب بهِ. واما قولك اسعدك الله انّ ابناء اليمة ليسوا مأخوذين بالتمسك بالناموس العتيق فقد صدقت في ذلك وليس انما نصومها لان سببها ذلك السبب لان الاسم الواقع عليها مستعار والسبب الحقيقي هو ما نشرحهُ. كان اسعدك الله في زمان من الازمنة السالفة حدث في بلاد باجرمي موت جارف اتى على الاكثر في ذلك البلد في اسرع مدّة وكان عليهم اسقف يسمّى سبر يشوع حفظ الله اليمة بصلواتهِ. فجمع رعيتهُ لاقامة الباعوث وشجّعهم وقال لهم: ان كان الله عز وجل برحمتهِ رحم اهل نينوى وكشف عنهم ما اجراه على لسان نبيهِ يونس الخ. فأجرى ان برحمتنا ونحن شبهُ المؤمنين بهِ وبجميعهِ وروحهِ المقرونة على الحق والصدق. فسمت (سمعت) هذه الرعيّة ما امرها بهِ الاسقف واجتمعوا وعملوا الباعوث على احسن ما يكون من عمل مثله من قطام الاطفال والاغنام ولبس المسوح مما اثرُ ذلك باقيًا (كذا) الى وقتنا هذا فدفع الله ذلك عنهم. فلما وُلّي مار طيموثاوس الجاثليق حفظنا الله بصلواتهِ امر بعمل هذا الباعوث فاتخذوا اصحابنا منذ ذلك الوقت الى وقتنا هذا سنّة اجروها مجرى الفرض عليهم الخ. واسم هذا الباعوث [illegible] (اي صوم الفريضة لا صوم نينوى).

وانما جرى ذكر نينوى لما قدّمنا ذكرهُ لشاكلة الموعد والانذار بالآفات الحادثة وما لحق القوم اجمعين من خلاص ما تخوّفوه . فمن تعمّد اكل اللحم فيها الزمناه ما يجب على من تعمّد اكل اللحم في الصوم الكبير »

وقد جاء ذكر هذا الحادث في تاريخ فطاركة كرسيّ المشرق الذي الحقهُ عمرو بن متّى الطيرهاني في كتابهِ المعروف بالمجدل (اطلب طبعة الاب جسمندي اليسوعيّ ص ٤٣) فبعد ان ذكر في ترجمة الفطريرك يوسف (٥٥٧—٥٦٧ م) انهُ جرى في ايامهِ موتان عمّ بلاد العراق والفرس حتى خلت بسببهِ البلاد قال في ترجمة خَلَفهِ حزقيال (٥٦٧—٥٨١) ما حرفهُ : . . . . . وفي ايامهِ بطل الموت الذي كان حدوثهُ في ايام يوسف المكنّى بالجثليق من الطاعون المسمّى شرعوط (كلمة كلدانيّة بمعنى الدمامل) وعلامتهُ كانت ان يظهر في كفّ الانسان ثلث نقط سود وفي حال ما يبصرها يموت حتى خلت مدن كثيرة وقرى كثيرة من الناس وبقي الذهب والفضة والامتعة بلا اصحاب وليس لها من يأخذها واكترى كسرى رجالاً لدفن الموتى وعيّن لهم من كلّ ميّت شيئاً معلوماً فحصل لهم في يوم واحد اربعمائة وخمسين ديناراً وعند الماء جلسوا ليقتسموا فماتوا على المكان وبقي المبلغ المذكور على الارض . وسبب ارتفاع الموت المذكور كان انّ مطران باجرمي (١ واسقف نينوى (٢ اتفق رأيهما على عمل الباعوث وعرّفا هذا الاب ذلك فاعجبهُ واستصوبهُ وكتب الى سائر الامصار الشرقيّة ان يكونوا باسرهم متفقين على رأيٍ واحدٍ ونيّة واحدة يصومون ويصلّون ثلاثة ايام اولها يوم الاثنين الذي قبل الصيام الكبير بعشرين يوماً ويطلبون من الله ان يرحمهم ويقبل سؤالهم مثلما قبل من اهل نينوى ويرفع الموت عن خلقهِ وان يكون صيام هذه الثلثة ايام ما بدا طول الزمان فلمّا عملوا ذلك قبل الله منهم ورفع الموت ومن ذلك اليوم سُميت هذه الباعوث صوعية نينوى وتخلصوا مثلهم برفع السخط عنهم (٣ اه بحروفهِ .

---

١) ناحية واقعة في شرقيّ دجلة بين الزب او جبال حمرين وديالة والكرمي الاسفي لهذه الناحية كان كرخ سلوخ وهي اليوم كركوك (راجع Chabot : Syn. Or., 668) وكان جالساً عليهِ اذ ذاك الاسقف يشوعيرب كما سبق

٢) لعلّ هذا الاسقف هو يزدينا هما الموقع امضاءهُ في مجمع الجثليق حزقيال (Chabot, l. c., 368)

٣) وقد ورد في فرض الكلدان انّ الاسقف اذ كان يصلي الى الله سمع صوت ملاكٍ يقول : « اقطعوا الى الصوم والصلاة فينكشف عنكم الداء »

وهذه الرواية تراها ايضاً في كتاب اسفار الاسرار لصليبا بن يوحنّا الموصلي (١ معاصر عمرو بن متّى وكذلك رواها يحيى بن جرير التكريتي في كتاب الكهنوت وابن العبري (٢ وهكذا ايضاً وردت في مقدمة رتبة هذا الصوم في الطقس الكلداني وفي المكتبة الشرقيّة للسمعاني (٣ وعن هولاء كافةً اخذ العلّامة المستشرق شابو وهذه عبارتهُ: « احتلّ الطاعون الدمليّ ما بين النهرين وبهذه المناسبة أُقيم صوم ثلثة ايام. وهذا الصوم يدعى انقطاع النينويين ولا يزال النساطرة متمسكين بهِ (٤ » وفضلاً عن هذا كلّه قد جاء في مقدمة الشهادوس الذي التأم سنة ٥٧٢ على عهد البطريرك حزقيال (٥ ما ينبيء بمصايب واكدار مختلفة كانت تحيط كنيسة المشرق قبل ان يتبوأ حزقيال كرسيّ المدائن. وفيها اشارة الى سوء تدبير الجثليق يوسف (٦ ومعاملتهِ السيئة للاساقفة ولا نشكّ انها تلمح ايضاً الى الطاعون المذكور

﴿ صوم نينوى في الكنائس الشرقيّة ﴾ هذا الصوم كان يعمُّ كلَّ الكنائس الشرقيّة الّا الملكيين وعندنا على ذلك شهادات واضحة. فانَّ السريان الكاثوليك

---

١) هو كاتب من كتبة القرن الرابع عشر وكان نسطوري النحلة وتاريخ كتابهِ اسفار الاسرار سنة ١٣٣٢. وهو لا يزال مخطوطاً منهُ نسخة في كليّة كمبريج (راجع المشرق ٧: ٥٨٦) وعند الاب بطرس نصري في الموصل وعنهُ اخذ مخطوطتهُ حضرة الاب انستاس الكرملي (راجع المشرق ٨: ٥٠٥) وعند يوسف افندي غنيمة قسٌّ منهُ وهو الذي يتكلّم فيه المؤلف من نظارة كرسي المشرق نقلهُ من عمرو بن متّى وزاد فيهِ بعض زيادات اهداهُ اياهُ حضرة لفوري ميخائيل شيا النائب البطريركي الكلداني في بغداد

٢) في تاريخهِ الكنسي (ج ٤ ص ٩٨)

٣) في المجلّد الثاني (ص ٤٣٥)

٤) راجع الشهودات النسطورية (Chabot: *Syn. Or.* 370,No, 2)

٥) ان هذا المجمع هو الثامن من المجموعة التي نشرها شابو وترجمها (راجع المشرق ٧: ٥١٧) وقد حضر هذا الشهادوس ثلاثة رؤساء اساقفة و ١٧ اسقفاً ورتبوا تسعة وثلاثين قانوناً

٦) كان هذا الجاثليق طبيباً ولما ترمل كرسي ملوقية أقامهُ كسرى انوشروان بدون انتخاب سنة ٥٥٢ م. وفي سنة ٥٥٤ انتدب الآباء واقام مجمعاً سنَّ فيهِ ثلاثة وعشرين قانوناً وبعد ذلك اساء التدبير فأُسقط عن الكرسي بمساعدة الطبيب موسى النصيبيني وبقي في الكرسي ١٢ سنة حسب عمرو بن متّى و ١٥ سنة حسب ماري ولهُ من التآليف سيرة سلفائهِ البطاركة (راجع (Labourt: *Le Christianisme sous l'empire Sassanide*, 192 seqq. ; R. Duval: *Litt. Syr.* 350 ; Chabot : *Syn. Or*, 352 No. 1)

لا يزالون حتى اليوم يصومونهُ في وقتهِ . وقد اثبتهُ مجمع الشرفة في جملة الصيامات المفروضة (راجع الصفحة ٦٠ من الطبعة اللاتينية) . لكنَّ السريان اليعاقبة كانوا يقيمون هذا الصوم على منوالين فمنهم من كان يصومهُ ثلاثة أيام كالكلدان ومنهم من يقيمهُ مدَّة جمعة فيباشرون بهِ يوم الاثنين ويصومون الى صباح السبت ولذلك يدعوهُ البعض جمعة نينوى . وقد نصَّ على ذلك ابن العبريّ في كتاب الشرع الكنسي (ج ١ ف ٥)

والآن في الكنيسة الكلدانيَّة والسريانيَّة في غضون هذه الثلاثة ايام تُقام الصلاة وأرتب الطقسيَّة البيعيَّة من الصباح حتى منتصف النهار وتُتلى الاناشيد والميامر البليغة بمعانيها من تصنيف الملفان مار افرام السرياني والشاعر المطبوع زمي الذي بكل استحقاق يُلقَّب بمُرد الروح القدس . وبعد ذلك يُحتفل بالذبيحة الالهيَّة

وكذلك الموارنة فانَّهم كانوا يمارسون هذا الصوم سابقًا . قال حضرة الخوري ابراهيم حروش ما حرفهُ : لا ريب في ان الموارنة كانوا يصومون صوم نينوى لا بل انَّ الاناجيل المملَّقة على الطبعة الثانية الرومانيَّة لكتاب القداس عندنا تذكر الاناجيل المعيَّنة لصيام نينوى وذلك بعد ان أُبطل في طائفتنا هذا الصوم . ومن الاتفاق الغريب انني عثرتُ على انجيل سرياني يعقوبي في مدرسة عين ورقة العامرة فُقدت منهُ اوراقهُ الاخيرة ولكنهُ اقدم من السنة ١٧٠٠ يونانيَّة (١٤٨٩ م) لأنَّ على الهامش بخطّ احدث ذكر امور جرت في تلك السنة . ولهذا الانجيل فهرس مطوَّل للاعياد وللاناجيل التي تُقرأ فيها فمن ذلك انهُ يذكر فصلًا من متَّى وهو (لا) اعني الحادي والثلثين على حسب تقسيم النسخة السريانيَّة يقرأ «مساء اثنين نينوى» وهذا الفصل هو نفسهُ المعيَّن في كتاب قدَّاسنا الذي ذكرتهُ . فهذا الصوم كان مرعيًّا اذن عندنا مع باقي صيامات الكنيسة السريانيَّة دون ادنى ريب . وقد ذكر الدويهي في تاريخهِ (ص ١٨٨) سبب ابطالهِ قال : «ان يوحنَّا الاهدني الذي كان اسقفًا في أيام البطريرك يوسف الرزّي في اوائل الجيل السابع عشر لشدَّة غيرتهِ في ان تزيد طائفتهُ اتحادًا مع الكنيسة الرومانيَّة حلَّل اكل اللحم لرؤساء الكهنة واكل السمك وشرب الخمر في صوم الاربعين وابطل جمعة نينوى وقصَّر قطاعة الرُّسل وقطاعة الميلاد ليجعل اعياد الرسل بطالة . ويدخل قبلها صيامات البيعة فما حسن ذلك عند بولس الخامس صاحب الكرسيّ الرسولي .

وفي سنة ١٦١٠ امر بنقض كلّ هذه الامور في منشوره الذي ارسلهُ الى البطريرك يوحنّا خلَف المذكور لأن العوائد التي كانوا متمسكين بها هي عوائد ممدوحة اتّصلت اليهم من الآباء الاطهار . الّا انّ الامر الذي تجري عادة الناس عليهِ يصعب ردُّهم عنهُ ولا سيّما في الامور الواسعة » . انتهى كلام حضرة الاب جرفوش

وكان صوم نينوى ايضاً جارياً بين الاقباط كما ترى في كتاب الجوهرة الفضيّة في علوم الكنيسة لابن سبّاع من كتبة القرن الثالث عشر (ص ٥٤) قال: « امّا صوم ثلاثة ايام يونان فهذا تذكار واشارة الى التوبة التي اجراها اهل نينوى لرفع غضب الله وسخطهِ عنهم » . فمن هذا القول يتّضح انّ الاقباط كانوا يصومون صوم نينوى وينسبونهُ الى ذكر توبة النينويين دون ذكر الموتان الذي رواهُ النساطرة . ولهم في كتبهم الطقسيّة ادعية وصلوات مختصّة بصوم نينوى (١ وعظات تتلى في كلّ يوم من الأيام الثلثة (٢ على انّ القبط الكاثوليك قد ابطلوا هذا الصوم تخفيفاً على رعاياهم وانّما يذكرونهُ في كلندارهم في ١٦ من شهر هتور (٣ الموافق لتشرين الثاني (٤ . هذا ولا نشكّ في ان الاحباش يصومون صوم نينوى لما بين الاقباط وبينهم من العلائق في العادات والطقوس وقد ورد ذكرهُ في كلندارهم الذي نشرهُ الرحّالة لودلف (٥

امّا الارمن فان صوم نينوى جارٍ عندهم حتّى اليوم تراهُ مذكوراً في كلندار الغريغوريين وفي الكلندار الكاثوليكي المطبوع في البندقيّة الذي يعرّبهُ كل سنة حضرة الاب سوكياس ورتبيت جريان الارمني الكاثوليكي . وهذا الصوم قديم عند الارمن وكانوا ايضاً يحتفلون بهِ خمسة ايّام . وهم يدعونهُ اراتشاوُر (Aratchaour) ومعناهُ

---

١) اطلب كتاب الطقوس الشرقيّة والغربيّة (Brightman: *Liturgies eastern and western*, I, 458)

٢) راجع كتاب المواعظ المطبوع في المطبعة القبطيّة (ص ٩٠-٩٦)

٣) اطلب كلندار الكنيستين (Nilles: *Kalend. man. utriusque Ecclesiae* II,697)

٤) وكان عند الاقباط صوم يعرف بصوم هرقل يسبق الصوم الكبير ذكرهُ المجمعُ القبطيّ الكاثوليكي ولم يقرّر لزومهُ (اطلب اعمال هذا المجمع اللاتينيّة ص ٦٤) . وكذلك ورد في تاريخ سعيد بن بطريق (الجزء الثاني ص ٥-٦ من الطبعة الجديدة) ذكر صوم هرقل ويجعلهُ قبل الصوم الكبير ويزعم انّهُ وُضع تكفيراً لحنث هرقل بعهده الى اليهود . ولم نتحقّق أيوجد بين هذا الصوم وصوم نينوى علاقةٌ ما

٥) اطلب كتابهُ: G. Ludolfi ad suam Hist. Æthiop. Commentarius (p. 386)

« بشير الصوم » او الصوم الاوّل امّا اصلهُ فيختلفون فيهِ فمنهم كموسى الخوريني من يزعم ان القديس غريغوريوس المنوّر حتم بهِ على الارمن لمّا نشرهم كاستعداد لقبول نعمة العمودية ومنهم من يدعوه بصوم سرجيوس لانّ في آخره اي يوم السبت عيد القديس سركيس الشهيد وقيل انهُ وُضع تذكارًا لتوبة آدم عند خروجهِ من الجنّة . وقيل غير ذلك والارجح انهُ صوم نينوى والدليل عليهِ انهُ يُعرَف اليوم بهذا الاسم عند الارمن الكاثوليك (راجع مطبوخ الارمن لسنة ١٩٠٦ ص ١٤)

فترى ممّا سبق انّ الطوائف الشرقيّة كلها عرفت صوم نينوى لا يستثنى منها الّا الروم فانّهم عدّوا هذا الصوم كبدعةٍ وحتموا بأكل اللحم في جمعة نينوى بعد ان كانوا يأكلون فيها الجبن والبيض فقط وذلك مخالفةً للارمن ولهذا يسمّونها « جمعة المخالفين » . وقد اختلقوا الروايات النريّة التي ينسبونها الى الارمن وليس لها ركن متين بل الأولى ان تُدعى من الترهات كقولهم مثلًا انّ سرجيوس الذي ينسب اليهِ هذا الصوم احد هراطقة الارمن كان لهُ كلب يسبقهُ الى كل مدينة ويبشر بقدومهِ فيخرج الاهالون لاستقبالهِ ثمّ اقتبس ذنب كلبهِ فدخل المدينة دون ان يدري بهِ احد والّا عالم بما جرى لكلبهِ نرض بهذا الصوم

ولكن دعنا من هذه الخرافات ولنذكرنّ ما اعتادهُ نصارى العراق في هذا الصوم وهو من الغرابة بمكان وذلك انّ العامّة يصنعون الحلوى ويلتّون السويق ويبيعونهُ من مساء الاربعاء الى صباح الخميس « نذرًا للخضر » ويقولون انهُ مار الياس او مار جرجس او مار بهنام ويزعمون انهُ يأتي ليلًا وانهُ شيخ عتيق الأيام ذو لحية طويلة بيضاء يعتلي جوادًا وفي يدهِ عصًا وانهُ مفرم بالزينة ولذلك يضعون لهُ بجانب الحلوى مشطًا ومرآة ومكحلة ولجوادهِ باقة بقدونس . وعند الصباح يتهادون الحلوى ويتجمع المتسوّلون عند الابواب يترعونها سحرًا طالبين منها حصّتهم . وما يعملهُ السريان والكلدان للخضر يعملهُ الارمن لمار سركيس . ولعلّهم خصّوا مار الياس ومار سركيس بهذا الصوم لانهُ كان يُعرف ايضًا سابقًا بصوم الياس وبصوم مار سركيس . امّا افراحهم وعاداتهم فالمرجّح انّها اشارة الى نجاة اهل نينوى من كربهم بإنذار يونان النبي والله اعلم